

اللغة والثقافة

محاضرة.. في مقياس اللغة والمجتمع. للأستاذ : د. علي حواجي.

العناصر:

1- تعريف الثقافة.

2- مظاهر ارتباط اللغة بالثقافة.

3- فائدة.

1- تعريف الثقافة: من خلال تحديدنا لمفهوم الثقافة يمكن أن نتبين العلاقة التي تربط بينها وبين اللغة، ولعل أشمل تعريف للثقافة هو تعريف تايلور الذي يقول: «الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من المقدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في جماعة». فالثقافة إذن تعني البيئة التي صنعها الإنسان لنفسه وتتضمن بصفة خاصة اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية وهي موجودة في كافة المجتمعات البشرية، وتتسع لكل ما أبدعته عبقرية الإنسان عبر العصور المتعاقبة من تاريخ حضارته، ومن ثم كانت تشتمل على عناصر مادية وأخرى معنوية، فالعناصر المادية هي الوسائل التي يستعملها الأفراد في معيشتهم كالمباني والأثاث والملابس والمخترعات، وكل ما تزخر به الحضارة في مجالاتها المادية، أما العناصر المعنوية فتتمثل في اللغة والآداب والعلوم والأعراف والعادات والتقاليد والقانون والمعتقدات والأخلاق...

ذلك أن الثقافة هي كل ما ينتجه أفراد المجتمع من الأنماط السلوكية المختلفة التي تحكم معيشتهم، ومن هنا يتبين أن اللغة تمثل أقوى مكونات الثقافة وأبرز صورها وهي الوعاء الذي تُحفظ به الثقافة وتُنقل بواسطته عبر الأجيال المتعاقبة في المجتمع.

يقول أحد المفكرين (الأستاذ ألبور Alport): «إن اللغة تحفظ بالتراث الثقافي جيلا بعد جيل وتجعل للمعارف والأفكار البشرية قيمتها الاجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة، للدلالة على معارفه وأفكاره، وباعتبار اللغة أقوى الوسائل التعليمية، فهي تساعد الفرد على تكيف سلوكه وضبطه حتى يناسب هذا السلوك تقاليد المجتمع الذي يعيش فيه».

2- مظاهر ارتباط اللغة بالثقافة: ولتوضيح العلاقة التي تربط اللغة بالثقافة بشكل ملموس نعرض بعض المظاهر التي تعدُّ أدلة وعلامات تتجلى فيها هذه العلاقة على أرض الواقع وفي الحياة المعيشة.

- المظهر الأول: هو أن العناصر التي تتكون منها الثقافة لا تعرف إلا باللغة سواء كانت هذه العناصر من القسم المعنوي: كالدين والتاريخ والقانون والآداب والفكر والتعليم والتقاليد والعادات أم كانت من القسم المادي: كالبناء واللباس والأثاث.. فهي كلها عناصر فكرية مجسدة في أعمال أي قبل أن تكون أشياء ملموسة كانت أفكارًا ومن ثم لها علاقة وارتباط وثيق باللغة بحيث لا تعرف إلا بها.

-المظهر الثاني: يتجلى في التكاملية بين اللغة والثقافة أي أن الثقافة تساعد على تطوير اللغة وإثرائها والتأثير فيها سلبا أو إيجابا بما تحققه من اختراع في جوانبها المادية وسمو في الانتاج الفلسفي، والفكري، والأدبي، و ما لذلك الانتاج الثقافي (المادي والمعنوي) من أثر في إغناء اللغة بالمفردات والمعاني السامية والمضامين التي تزيد اللغة ثراءً وقوةً فكلما زاد الإنتاج الثقافي زادت التسميات باللغة ثراءً والعكس فإن نضوب معين الثقافة وتوقفها على الاختراع المادي والانتاج الفكري يؤدي حتما إلى وقوف تطور اللغة في الدلالات والمعاني وضيق أفق اللغة وتعجز عن التعبير عن الأشياء المستحدثة التي لم يكن لثقافة تلك اللغة فضلٌ على اختراعها، وأوضح مثال على ذلك، اللغة والثقافة العربيتان: فعندما توقفت الثقافة العربية عن مواكبة التقدم التكنولوجي العصري في الاختراع أثر ذلك على اللغة العربية التي أصبحت تعاني من بعض القصور في التعبير عن المستحدثات من الأشياء التي اخترعتها ثقافاتٌ أخرى، وأصبحت المجامع اللغوية

العربية تسابق الزمن دون جدوى لتعريب ذلك السيل من المصطلحات العلمية التي تستجد في الثقافات الأجنبية كل يوم في شتى الميادين في الحياة.

-المظهر الثالث: ، نلاحظه في الرموز التي تستعملها اللغة لدلالات معينة التي منبعها ثقافة المجتمع الذي تُستعمل فيه. فاللون مثلا يشير إلى شيء محدد في كل ثقافة ، فاللون الأحمر يدل على الخطر في ثقافة كما يدل على التضحية والجهد في ثقافة أخرى.. واللون الابيض يدل على الطهر والبراءة والسلم في ثقافة قوم، ويرمز إلى المرض والموت والحزن في ثقافة أخرى، واللون الأسود قد يكون رمزا للحزن في ثقافة، وعنوانا للجد والتواضع في ثقافة.. وكذا اللون الأخضر الذي يدل على الخصوبة والخير والجنة في بعض الثقافات... وهلم جرا.

و بذلك تصبح كلمة أحمر أو أبيض أو أسود أو أخضر تحمل كل هذه المعاني المعتبرة على اختلاف دلالاتها في كل ثقافة، ولا يخفى على أحد ماذا تعني عندنا كلمة: يوم أسود، عام أخضر، خط أحمر ومنها التعابير السائرة في الجزائر: العشرية السوداء والعشرية الحمراء.. فالثقافة هي المحددة لمداول اللغة هنا.

- المظهر الرابع: يظهر في كثرة الكلمات المستعملة للدلالة على الشيء الواحد بحسب اهتمام أفراد المجتمع بذلك الشيء وموقفهم الثقافي إزاءه، ومن ذلك مثلا أننا نجد في اللغة العربية عشرات الأسماء لمسمى واحد كالسف أو الجمل أو الأسد.. في حين لا نكاد نجد لهذه المسميات إلا اسما واحدا في لغات أخرى كالفرنسية والإنجليزية، كما نجد في العربية كلمات (خال) و (عمة) و(عم) و(خال) للدلالة على نوعيات محدّدة من صلات القرابة من ناحية الأب والأم، على حين أن هذه المسميات كعمة وخال تصبح في الفرنسية أو الإنجليزية اسما واحدا (Tante) وكذا عمّ وخال تصبح (Oncle) وربما يعود هذا التوحيد في التسميات إلى قلة الاهتمام بالقرابات والروابط الاجتماعية ولذلك كان التفصيل فيها أمرا غير مهم.

- المظهر الخامس: يتضح في أن كل لغة تحمل في ما تعبّر به عن عناصر ثقافتها معاني تثير في نفوس أصحابها المتكلمين بها انفعالات تختلف عما تثيره في نفوس غيرهم من أفراد مجتمع

آخر غريب عنها، ذلك أن اللغة تحمل مضامين فكرية وشحناتٍ انفعالية تترك في السامعين آثاراً مختلفة، وقد لا تصل أصلاً إلى نفس من لم يكن من أفراد مجتمعها الأصلي.

فكلمة "جمل" و "صحراء" و "سيف" مثلا ترتبط لدى ابن الصحراء العربية بمشاعر مختلفة تماما عن تلك التي ترتبط بها نفسُ الكلمات لدى الفرد في مجتمع الاسكيمو مثلا (هكذا أردنا أن نضرب أمثلة مضخمة حتى يتضح المعنى أكثر) وعكس ذلك كلمة "ثلج" و"نار" و"برد" فإنها تترك انفعالات لدى سامعها من سكان القطب الشمالي، ترتبط بمشاعر سلبية أو إيجابية حسب أثرها السابق في مجرى حياته اليومية.. تختلف عن المشاعر والأفكار التي توحى بها نفسُ الكلمات للفرد في الصحراء العربية، وقل نفس الشيء عن كلمة "بقرة" و"خنزير" بالنسبة للفرد في المجتمع الإسلامي والمجتمع الهندوسي، في الوقت الذي توحى الكلمة الأولى للمسلم بمشاعر طيبة توحى له الثانية بكل ما هو قدرٌ وخبيثٌ محرم، وعكس ذلك عند الفرد الهندوسي الذي توحى له الكلمة الأولى "بقرة" بمشاعر التقديس والمهابة (لأنه يعبدها) في حين توحى له الثانية بمشاعر مخالفة لما أوحى به إلى المسلم...

ومما يتمثل فيه تشعب الكلمات بالمشاعر والمعاني الخاصة هو الشعر والأدب عموماً، ولهذا تكون ترجمة التراث الأدبي وبخاصة الشعر من لغة إلى أخرى مقتصرة (في أحسن الظروف) على الجوانب الضيقة، وتترك وراءها ثروة ضخمة من المشاعر والمعاني السامية التي لا تقوى على نقلها من لغتها الأصلية إلى أية لغة أخرى، ولعلّ المثل الإيطالي القائل: «الترجمة تعني الغش» يؤكد هذه الحقيقة إلى حد بعيد. أو كما قال أحد المفكرين: «الترجمة الكاملة خيانة حقاً للفكر الأصيل» إذا أردنا مثال يقرب المعنى أكثر: فمن أين للمترجم أن يترجم مسميات تفاصيل وأجزاء النخيل في بيئتنا، ومثل ما يقال عن ترجمة تراث أمة وأدبها إلى لغة أخرى يقال عمن يكتب عن واقع ثقافة مجتمعة بلغة غير لغة قومه، فإنه لا يُجيد التعبير عما يُحسه وبالتالي لا يُجيد التبليغ للآخرين عن أصدق مشاعره ولا يترك كلامه لدى السامع من أفراد مجتمعه الأثر الذي يتركه التعبير باللغة القومية.

وفي هذا المعنى يقول الكاتب الجزائري مالك حداد عن تجربته في الكتابة عن واقع المجتمع الجزائري باللغة الفرنسية، يقول: «إن الكلمات وهي معدتنا اليومية ليست في مستوى أفكارنا بل عواطفنا، وليس هناك إلا توافق تقريبي بين فكرتنا العربية وألفاظنا الفرنسية». ومن هنا كانت لغة الشخص الأولى والأصلية هي تعبير صادق عن أفكاره ومشاعره وعواطفه وغرائزه ودينه ومجتمعه على وجه العموم، بل هي جزء لا يتجزأ من شخصيته أما اللغات الأخرى الطارئة عليه فهي نتيجة لأفكار غيره ومشاعرهم وعواطفهم وغرائزهم وأديانهم ومجتمعاتهم، لأنها واكبت حياتهم من البداية إلى النهاية وفي هذا يقول أيضا الجاحظ في كتابه "الحيوان": «... إن الترجمان لا يودي أبدا ما قال الحكيم (أي المتكلم الأصلي)، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وحقائق حدوده، ولا يقدر أن يوافقها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل، ويجب عليه، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها والإخبار عنها على حقها وصدقها؟ إلا أن يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه.

و الخلاصة هي أن الثقافات الإنسانية يتميز بعضها عن الآخر وتختلف في مدلولاتها ومضامينها من مجتمع لآخر، ولا تعبر عن تلك المضامين الثقافية إلا اللغة التي وعت معانيها... فمضامين الثقافة العربية الإسلامية مثلا لا تعبر عنها (أصدق تعبير) إلا اللغة العربية.. كما لا تعبر عن مضامين الثقافة الفرنسية (أصدق تعبير) إلا اللغة الفرنسية.

فاللغة وعاء لحفظ الثقافة ووسيلة التعبير عنها والعربة التي تنقلها عبر أجيال البشر في مختلف الأزمنة والأمكنة، وكما لا يمكن وجود ثقافة بدون لغة لا توجد لغة بدون ثقافة ولا يوجد الاثنان بدون مجتمع.

• فائدة:

من يتكلم الفرنسية دون أن يحمل أفكارها و يتبنى ثقافة قومها في حياته ومعاملاته يطلق عليه مصطلح Francophone فهو فرنكفوني، ومن هنا جاءت تسمية "الدول الفرنكوفونية"؛ أما من ينطق بها ويحمل وأفكارها وثقافتها فيسمى Francophile فروكوفيلي.

و الفرق يظهر في اللاحقتين phone التي تعني النطق و الصوت و phil التي تدل على الفكر ومنها جاءت philosophie أي فلسفة.